النقد الاستشراقى المعاصر للسيرة النبوية

جاكلين شابى أنموذجا

فرحات عبدالحكيم*

هل نحن مقبلون على ثورة علميّة فى الدراسات المحمدية ﷺ كثيرا ما يردُ هذا السؤال على المتتبعين لما يعد من أبحاث فى هذا المجال خلال العقود الأخيرة؛ إذ نقف على نتاج كبير لم يسبق أن ظهر مثله فيما مضى، نرى فيه رؤى منهجية تخرج عما ألف فى العلوم الإسلامية التراثية، لم تتبلور فى فضاء المعرفة الإسلامية، ولا فى أحضان الروح الإسلامية، ومع ذلك تطمح إلى تفكيك المعتقد الإسلامى فى النبوة المحمدية، ودراسة مسلماته دراسة نقدية، بعد أن استقرت فى الوعى قرونا طويلة، وللأسف فأكثر هاتيك الدراسات تعد بمراكز غربية، ببريطانيا وأمريكا، وإسرائيل، وفرنسا، وصار لها فهارس عديدة(١) ، ما يثبت أن النبى محمّدَ القرنِ السابع الميلادى ﷺ، قد صار موضوعا خصبا لأبحاث الألفية الثالثة.

ورغم ذلك، فالباحثون المسلمون فى عالمنا الإسلامى بعيدون كل البعد عن هاتيك الرؤى النقدية، لا يعرفون شيئا عن المناهج الجديدة، ولا عن رؤاها النقدية، ولا عن نتائجها المستجدة، ناهيك عمن يرفض الاطلاع على ذلك جملة وتفصيلا، أو يدير لها ظهره لها بحجة أنها كفرٌ صراحٌ، وهذا ما يشكل خطرا حقيقيا على دراسة النّبوة المحمدية، وعلى الدعوة الإسلامية، وعلى إيمان المسلمين عموما، ويبصّر بأن الدراسات المحمدية فى أزمة حقيقية، مسلمٌ غيرُ مطلعٍ على ما جدّ من أبحاث ومناهج ورؤى النقدية، ومستشرقٌ متحيّز ملم بما افتقده المسلم المعاصر، وهنا صلب الأزمة الحقيقية، التى تحتاج منا تدارك سريعا، يقوم على الإيمان العميق، وامتلاك النفس، والاطلاع على المناهج النقدية قديمها وحديثها، ونقد ما جدّ من طروحات علمية، ولن يخيب من يعمل بذلك أبدا.

ولا شكّ فى أنّ الجامعات الفرنسية من أهمّ هاتيك المراكز الغربية، التى تصدّت فى العشريات الأخيرة

* استاذ مشارك ، قسم اصول الدين ومقارنة الاديان الجامعة الاسلامية العالمية، كوالامبور ،بماليزيا

ولقد خالفت الباحثة كل ما تقرر فى العقيدة الإسلامية والسيرة المحمدية، بما يدفع الباحث الموضوعى للتساؤل عن سبب ذلك، أهو النبوة ودلائلها؟ أم المناهج الحديثة؟ أم ثمة شىء آخر وراء هاتيك الأقوال النقدية؟ ورغم جدّة نظريات هذه المستشرقة، واحتفاء النقاد والمستشرقين بها إلا أنها لم تلق اهتماما بين نقادنا المسلمين .ومن هنا، فقد تبلورت إشكالية هذه المداخلة، تصبو لتحليل أعمال المستشرقة، تبصر بحقيقة رؤيتها النقدية، وتكشف عن عدّتها المنهجية، وتقيّم نتائجها النقدية، باستخدام منهج تحليلى نقدى تارة، ومقارن تارة أخرى، وأبرز نتائجى فى المباحث التالية :

(١) أزمة الدراسات المحمدية، قراء ة فى العوائق

(٢)جاكلين شابى :قراء ة فى المنهج المقترح

(٣) مشروع تفكيك صورة النبىﷺ

(٤) النبى التاريخى، قراء ة أنثربولوجية نقدية، أفصلها بعون الله العلىّ فيما يلى من بحث:

أولا :أزمة الدراسات المحمّدية، قراء ة فى العوائق :

تؤكد جاكلين شابى أن الإسلام والدراسات المحمدية تعيش أزمة حقيقة، منعته من استكمال ثورته النقدية والتاريخية(١٣) ، على غرار ما حدث لليهودية والمسيحية، اللتين قطعتا أشواطا من النقد والتجدد طوعا أحيانا، وكرها أحيانا أخرى(١٤) ، فمازالت هذه الدراسات إلى وقتنا الحاضر، تعيش حالة من التخلف النقدى، وتنتظر ثورة علمية حقيقة، حتى تنفتح مغاليقه وتتعمق نتائج بحثه، يكون لها بالغ الأثر فى فهم الذات والتاريخ والمعتقد .(١٥)

ويتبدى من خلال أعمال جاكلين شابى أن فى الدراسات المحمدية عوائق عديدة، (تواجه من يريد الوصول إلى دراسة مرحلة تاريخية قديمة العديد من العقبات، كما لو أن الوقت المنقضى بين عصر المؤرخ والعصر الماضى (الذى يريد دراسته) يمنع من اكتشاف ما وقع)(١٦) ، وأهم هذا العقبات الوثائق المعتمدة، والباحثون المشتغلون بهذا المجال، والتفسيرات المتوارثة؛ ولكلٍ دورٌ فى تأسيس تخلف هذا المجال المعرفى وتعميق تدهوره النقدى، وإن كان العنصر الأول، الوثائق غائر الأثر يصعب تداركه؛ لما كانت أكبر مشكلة تواجه من يتصدّى للدّراسات المحمّدية قلة الوثائق العلمية التى يمكن اعتمادها فى هذا المجال من البحث، إذ النّبىﷺ570-632)) كما تؤكد جاكلين شابى لم يترك سجلا مكتوبا، ولا وجادات أثرية، تثبت وجوده بسوالف الأيام، وتبصر بعقيدته، وتبين

وليست سيرة النّبىﷺ فى نظر جاكلين شابى بأحسن حال من القرآن والمرويّات الإسلامية، إذ أنّ أول سيرة قد دونت بعد وفاة النبىﷺ بأكثر من قرن من الزمن، ووازاها تدوين السنة النبوية، الّذى انتهى بالمدونات الحديثية الشهيرة، ما يثير فى نظرها احتمال تغيير الرواة، وحضور الذّاتية، فرضية الابتداع والاختراع، وكل ذلك ثبت، إذ قد وضح أن القرنين التاليين للبعثة قد تجردا لبلورة تفاصيل أصول الإسلام بدقة، وإعادة بنائه بناء وهميا(٢٣) "(Fictif)، بما يخدم الظروف السياسية، ولذلك تقول :إن من السذاجة قبول ما جاء فى هاتيك الروايات والتسليم بما فيها(٢٤) ، الأمر الذى يقف عثرة أمام الباحثين؛ إذ كيف يستقيم بحث ولا وثائق مكتوبة؟ وكيف تبين رسومه ولا أثارات معلومة؟ إن ذلك لأمر بعيد المنال .(٢٥)

ونتيجةٌ لكلّ ما سبق، فإنّ جاكلين شابّى تؤكّد أنّ المصادر الحالية للسيرة النّبوية لا يمكن التّسليم بها، ولا يمكن التعامل معها كمصادر أساسية فى الدراسات المحمّدية؛ فهى لا تعكس الواقع التاريخى بقدر ما تعكس تصورات واضعيها عن النّبوة المحمدية ﷺ(٢٦).

والمعتقدات والتفسيرات الإسلامية المتوارثة هى ثانى العقبات التى تفعل فى تأزيم الدراسات المحمدية، وتقتضى حيطة كبيرة فى التعامل معها؛ إذ أنّ(أكبر مشكلة تواجه المؤرخ أن لا يترك التاريخ المقدس يحتل مجال البحث التاريخى، ولا شك فى أنه ليس من السهل دائما مقاومة الضغوطات المحيطة، وعدم عبور المرآة(لاكتشاف الذات)، ممّا يوجب أن نكون على حذر من الافتتان بالموضوع)(٢٧) لمّا كان زخرفها يخدع الخبير ناهيك عن المبتدء؛ تقول جاكلين شابى: (حينما ترتبط ثقافة بدين حى مثل الإسلام، فلا شك فى وجود عقبات أخرى، عقبات معتقَد العصر الحاضر، والذى يعد هو الآخر مجرد وجهة نظر حول ما أحداث الماضى، سيّما ما تعلق بمرحلة نشأة الدين)(٢٨) ، كما تقول :(إنّ الإسلام تراث ثقافى عظيم، ومجموعة من التفسيرات المتعاقبة، والتى تشكل بعضا من العقبات، وكل تفسير دليل وشاهد على تصورات عصره، وهذا ما يوجب أن نعرفها فحسب، لا أن نعتقد أنها تعطينا الأسئلة وأجوبتها؛ إنّ الماضى من منظور تاريخي لا يتحدث إلينا عبر القرون، إنه يكلّم نفسه فقط، ولا تعد النصوص المحفوظة إلا صدى له). (٢٩)

ولما كانت الوثائق بهذه الرداء ة، والتفسيرات بمثل هذه الزخرفة، تفترِض الباحثة شرطين يؤهلانهم لتجاوز عقبة الوثائق، وهما :التحرر النقدى الذى يجنبه الذاتية والشطط، والتكوين العلمى

الحداثيين المتسلحين بالمناهج المعاصرين والفاقدين للرؤية والمعرفة الإسلاميتين، ما أنشأ خطابين مختلفين، الأول تقليدى غير واع بما يجرى فى العصر، والثانى فى قلبه شيء ، تمر بالمناهج المعاصرة، ونسى أو تناسى أن ينظر فى مناهج نقادنا الأوائل، وهذا ما يحتاج فى نظر إلى تكوين جديد فى الجامعات الإسلامية، يستطيع أن يرتفع بمستوى الباحث كى يقوم بواجب الشهادة الشرعية على العصر.

ثانيا :جاكلين شابى :قراء ة فى المنهج المقترح

تقترح جاكلين شابى لتجاوز أزمة الدراسات المحمّدية فى غياب الأدلة الأثرية، تأسيس دراسات علمية جديدة، تنهض بدراسة أصول الإسلام ومعتقداته فى سياقها التاريخى، تقوم بوظيفة المرمّم مع الصور القديمة، إذ تراه يقدم على لوحة فنية تكسوها ألوان زاهية، فيفحصها وينقشها، كى يجد الألوان الأصلية، ومثلها السيرة، فجاكلين شابى تريد أن تنظر فى المعتقدات الزاهية التى يراها المسلمون فى شخص محمد، تحقق فيها وتنظر، حتى تعثر على الملامح الحقيقية للنبى، تلك الملامح التى غارت بين ركام الأدب التمجيدى الإسلامى(٣٤) ، وهذا ما يجعلها تعيب على النقاد المسلمين تخوفهم من اعتماد النقد التاريخى، على العكس من اللاهوتيين المسيحيين واليهود الذى فتحوا معتقداهم لتساؤلات العقلانيين طوعا وكرها .(٣٥)

ولقد أوضحت جاكلين شابى فى تحذيرها الذى صدرت به كتابها، أنّ هدفها هو (إعادة قراء ة النصوص الإسلامية، وإخضاعها لمعايير النقد التاريخى، وما تقترحه العلوم الإنسانية من أدوات، وإزاحة هالة التقديس التى يضفيها المسلمون على رسول الله، ليصير إنسانا مرة أخرى كما كان ذات مرة، ولذلك تصرح أنها(تُؤَنْسِنَ محمدﷺ)(٣٦) اعتمادا على منهج مركبٍ من المنهج الأنثربولوجى (Une approche Approche anthropologique))، والمنهج التاريخى النقدى historico-critique) لدراسة النبوة المحمدية وأصول الإسلام فى سياقهما الثقافى الاجتماعى الواقعى، بوصفهما قضية مركبة صعبة التناول، وتلح على ضرورة استخدام الأنثروبولوجيا فى دراسة هذا الموضوع، وترى فيه المنهج الأصلح لمثل هذه القضايا، المنهج الوحيد الذى يعطينا المفاتيح اللازمة لاكتشاف الثقافات الأخرى والمراحل الفكرية والمذاهب المختلفة والاهتمام بها، دون ازدراء لها ولا تعال؛ تقول :(فى الحقيقة، الطريقة الوحيدة لفهم شخصية محمد، هى تطبيق معايير الطريقة

ولقد وظّفت جاكلين شابى فى تحليلها للنبوة والمحمدية والسيرة الشريفة العديد من طرق التحليل الانثروبولوجى التاريخى، التى لا يمارسها الفكر الإسلامى المعاصر إلا قليلا، كالطريقة التاريخية لتحليل والبيئة الجاهلية والسيرة المحمديّة، والطريقة الفيلولوجية فى تحليل العديد من الألفاظ القرآنية، والطريقة المقارنة فى دراسة العقائد والشرائع، وطريقة أسماء المواقعToponomie))، واعتمدت العديد من المفاهيم الأنثروبولوجية كنماذج تحليل لدراسة السيرة النبوية الشريفة؛ أهمها الذاكرة الاجتماعية mmoire social))، والمخيال الاجتماعى Imagination social))، بوصفهما أداتين فاعلتين لفهم تكون ثقافة مجتمع، وإدراك كيفية تفاعلها مع تاريخ ذاتها، ومع الثقافات الأخرى .(٤٥)

ولقد ظهرت تطبيقات هذا المنهج فى كتاب جاكلين شابى بعنوان :محمد، رب القبائل Mohamet, seigneur des tribus))، بأقسام أربعة متوالية، أولها :القرآن ووسطه الأصلى Le) Coran et son milieu dorigine)(٤٦) ، يليها قسم بعنوان :بناء الماضى، نصوص المروية والنصوص أخرىLa construction du pass, textes daprs et dalentour)) (٤٧) ، ثم قسم ثالث بعنوان :محمد المتنكر لهLe prophte dni))(٤٨) ، ثم قسم رابع بعنوان :صراعات وطقوسDes combats et des rites)) ،(٤٩) لتصل بعد ذلك إلى خاتمة .(٥٠)

لقد خصصت جاكلين شابى القسم الأول من كتابها :القرآن ووسطه الأصلى Le Coran) et son milieu dorigine)(٥١) ، لإعادة دراسة سيرة النبى فى فضاء الحياة espace de vie، تناولت فى فصلين متواليين :الفضاء المكىLespace Mekkois، ووضعية القرآن Le statut du Coran، حللت فيهما فيها القرآن ووسطه الأصلى Le Coran et son milieu dorigine ، وبيّنت كيف أن تبلور النبوة المحمدية والنص القرآنى فى وسط، تهيمن فيه الصحراء ، وتتسم فيه الثقافة بالانغلاق، وتتجلى فيه العزلة الاجتماعية عن باقى الحضارات الإنسانية .(٥٢)

وفى القسم الثانى من كتابها المشار إليه :بناء الماضى، ولنصوص المروية والنصوص المحيطة La construction du pass. Textes daprs et dalentour (٥٣) حاولت جاكلين شابى اكتشاف الطبقة الأولى من التقاليد الإسلامية، وإثبات أن عملية إعادة بناء الواقع الإسلامى الماضى، تمت فى مرحلة الإسلام الإمبريالى (تقصد الأمويّينlislam imprial)()، وذلك عبر ثلاثة فصول:

ما تمثل تصور المسلمين عنه، ولذلك تحتاج تنقيبا دقيقا ومتأنيا، حتى تكشف هاتيك الطبقات، وتفحصها واحدة واحدة، وتسبر خصائصها، وتحدد تاريخها التكوينى، حتى يتبدى النبى التاريخى الذى عاش فى قبائل البلاد العربية، ويعثر على ملامحه الغائرة، ما يضاهى عمل المنقب فى الطبقات الجيولوجية؛ إذ تراه يقدم على مغارة غاب بابها، فيبدأ فى التنقيب والبحث حتى يجد بابها الأصلى، ولذلك كثيرا ما تجد جاكلين شابى تستخدم مفاهيم جيولوجية فى التحليل من باب المضاهاة ذاتها، وتذكرنا بجهود المرحوم الدكتور عبد الوهاب المسيرى ومنهجه الجيولوجى فى دراسة اليهودية فى موسوعته الشهيرة حول اليهود واليهودية.

وللبحث فى طبقات المعرفة الإسلامية حول النبىﷺ تدعو جاكلين شابى إلى ضرورة قراءة النصوص فى ضوء العلوم الإنسانية، وتوثيقها فى ضوء ما استجد من معلومات حول القرآن، للبحث عن النبى التاريخى والتنقيب فى المعرفة الإسلامية، على غرار ما هو موجود فى الدراسات اليهودية والمسيحية من بحث حول موسى التاريخى، والمسيح التاريخى، و تميز فى نقدها بين أربع صور للنبىﷺ على الأقل، وهى(١) صورة السير(٢) صورة الحديث النبوى الشريف(٣) صورة القرآن الكتابى (٤) صورة القرآن الشفاهية، أتناولها بدأ بأحدثها فيما يلى:

(١) صورة السّير النبوية الشريفة :

وهى صورة النبى الذى أنبأه الله بجبريل، وآتاه من الآيات العديدة، أرسله إلى قريش رحمة للعالمين، وهى الصورة التى ترسمها كتب السير النبوية لشخص النبى الكريمﷺ، وتشحذها فى ذهن المسلم التقليدى، أيا كانت فرقته، إبراهيم، أوتى من المعجزات الشىء الكثير، نبى تحدى العرب بالقرآن، أرسل لكل العالمين، لكل الناس فى كل مكان؛ تلك الصورة التى تعدها جاكلين شابى أجمل من تكون من أن تكون حقيقة(٥٨) .بدأت تتبلور بعد وفاة النبى بقرن الزمن، اعتمدت على الرواية، كانت غضة عجائبية آنذاك، ثم دونت فصارت نصوصا، تحوى صورا ثابتة عن الشخصية المحمدية، تستند إلى عقلية عجائبية، ومواقف إيمانية مسبقة التى تدرس النبوة بروح علمية، وتعيدها إلى الإنسانية تارة أخرى، وتدرسها فى ضوء سياقها التاريخى، أى باختصار تنقصها الأنسنة(التعامل مع النبى كإنسان)، والأرخنة(البحث عن الأصول التاريخية) والتسييق(الوضع فى سياق)، وجل ما أنتجه الفكر الإسلامى المعاصر فى نظرها هو امتداد أمين لهذه النظرة التبجيلية(٥٩) .وهى تشيد هنا

(٣) صورة القرآن الشفاهى:

وتريد به جاكلين شابى النص القرآنى قبل تدوينه، وتدعوه أحيانا أخرى القرآن القبلى، تمييزا له عن القرآن الكتابى الذى صار متداولا بعد ذلك؛ إذ القرآن الكريم فى نظر جاكالين لم يدون إلا بعد وفاة النبى بثلاثة أرباع قرن على أقل تقدير، ما يبين أنه قد قضى ردحا من الزمن لا ينقل إلا بالمشافهة، ما عرضه للتحوير، والتغيير، والتسييق، وأعطاها معان جديدة، لم يُردها السياق الأول(٦٧) ، ولذلك ترى جاكلين شابى أن النص القرآنى الحالى نسخة معدلة عن القرآن الأول، خضع لتعديلات متكررة، أهمها ما وقع تحت رعاية الدولة الأموية .(٦٨)

وللتمييز بين القرآنيين الكتابى والشفاهى، تعتمد جاملين شابى على مدونة المصحف العثمانى، وتحاوله وضعها فى سياقها الذى ظهرت فيه Mise en contexte(٦٩)، سياق الصحراء والبيئة القريشية، تتخذ منه سياقا لقراء ة النص القرآنى، وكشف العديد من العناصر الغائرة تحت كل الصور النبوية السابقة، تستجلى صورة النبى الإنسان، كما كان يعرضه الفكر الإسلامى(٧٠) .وتلك أكبر مشكلة تواجه الباحث فى هذا المجال كما ترى جاكلين شابى، إذ تقول :(إن المشكلة إذن هى معرفة الشروط الدقيقة لكتابة القرآن، حتى لو كانت الدوافع التى تقود العملية تستطيع التفسير فى سياق الدولة الأموية ضد الإمبراطورية البيزنطية). (٧١)

ويمكن تلخيص تصورات جاكلين شابى حول الصور المحمدية فى البيان التالى:

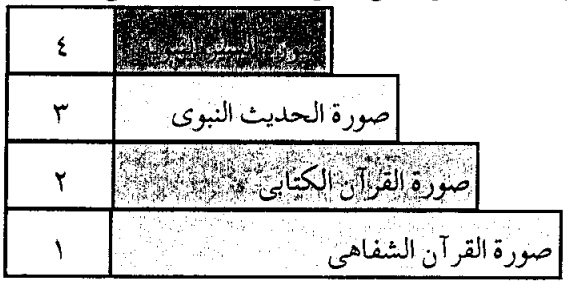

ملخص صور النبى فى رؤية جاكلين شابى

وسنفرد العنصر الموالى لتحليل هذه الصورة الشريفة.

وننبه هنا أن جاكلين شابى قد جانبت الصواب فى تقرير هذا التمييز بين الصور المحمدى، واعتمادها على الطعن فى توثيق المصحف الشريف والسنة النبوية، وخضوعهما للتأثير السياسى، والتشكيك فى كل النصوص الإسلامية حول القرآن الكريم والسنة النبوية، والانسياب مع النظرة

والكتابى، وبين الشفاهى والكتابى، وإجماع الصحابة من بعد على صحة الجمع القرآنى وتلقيهم له بالقبول والعناية(٧٧) ، ومن بعدهم الأمة الإسلامية والفرق الإسلامية المختلفة، النقاد المسلمون .ولا تختلف جاكلين فى ذلك عما يقرره محمد أركون، ولا عن المستشرق ولش(Welch)كاتب مادة (القرآن) فى دائرة المعارف الإسلامية فى طبعتها الجديدة(٧٨) ، للتشكيك فيما هو قطعى ومتواتر، وتتداوله ملايين النسخ من المصاحف المطبوعة والمخطوطة فى مختلف بقاع العالم، وتشكك فيما يحفظه المسلمون بأسانيدهم عن ظهر قلب بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ، وهذا ما يجعلنا لانسلم بتمييز جاكلين شابى بين القرآنيين، الشفاهى والكتابى، فليس هنالك إلا الكتابى، لما تبين أن رسول الله ﷺ قد دون أمر بتدوين النص القرآن، وعنه نقلت الجموع الأخرى، فكيف يصح بعد هذا ادعاء وجود شفاهى تلاه الكتابى؟ ولا نسلم لها وصف القرآن بالفولجاتا(Vulgate)، الاسم اللاتينى الذى أطلقه القديس جيروم على النسخة التى قام بجمعها من نسخ الكتاب المقدس وترجتها، لعدم التوافق والتناسب المانع من الإطلاق، ولا نرى ذلك إلا من قبيل إسقاط المفاهيم المسيحية على مجال البحث القرآنى والمحمدى، وتلك نقيصة ينبغى للباحث الجادّ أن يتورع عنها.

وتقريرات جاكلين شابى حول تدوين السنة الشريفة ودور السياسة فى تفعيلها قد جانبها الصواب كثيرا، وتبيّن أنّها لم تطلع على تاريخ تدوين الحديث، ولا على الجهود الفردية المبذولة التى تصدت لخدمة السنة، والتى لاتخدم أية مملكة قائمة، ولا على محصلات النقد عند علماء الحديث، وما أنجزوه من مناهج نقدية تخدم هذا الغرض، وقواعد أرسوها لنقد المعارف بكل أنواعها :الروائية والشفاهية، والكتابية، كمبدأ العدالة، ومبدأ الاعتبار، ومبدأ المشاركة (وحفظ المرويات المنقولة حتى نستطيع التثبت من نقدهم مرة أخرى)، ومبدأ الترجيح، وغيرها كثير لا يسمح به هذا المقال .

وبعد أن حررنا هذا، يظهر أن التمييز بين الصور الأربع للنبى مفتعل، بعد أن أثبتنا تهافت التميز بين القرآنين، الكتابى والشفاهى، وأقمنا الحجة على صحة نقله وثبوت تدوينه من عهد النبى ﷺ، وتواتره وانتشاره بما يحيل تحريفه ويسقط شبهة تحريفه وتغييره إبان الحكم الأموى، وتصدى المحدثين لنقل أحاديث النبى ﷺ نقلا أمينا مراعين خصوصيات المعرفة الشفاهية واحتمال الخطأ فيها، بما يجعل الركون إلى تصحيحاتهم فى كثير من الأحاديث أمرا لازما .إذا تقرر هذا، تبين خطل التمييز بين صور النبى فى المصادر الثلاثة المذكورة أعلاه :القرآن الشفاهى، والقرآن الكتابى،

والإسلام القبلى islam tribal(٩٢) ، دون أن توضح معنى القبيلة هنا، مما يوقع القارء فى حيرة من توظيفها، رغم أنها كلمة أساسية فى بحثها، بنها عليها كل كتابها، وعاودت تفسير القرآن وفقها .

ويبدو من السياقات المشار إليها أنها تعنى بالقبلى هنا البدوnomade، كما يظهر فى العديد من الصفحات(٩٣) ، وهو الأمر الذى يؤكد بعد الباحثة عن الصواب، إذ إن مكة المكرمة آنذاك مدينة حضرية بالمعنى الأنثربولوجى، وانظر لما يقوله كبير مؤرخى الجزيرة العربية، جواد على :(يقسم أهل الأخبار قريشاً إلى :قريش البطاح، وقريش الظواهر، (...)، ويبدو من وصف أهل الأخبار لقريش البطاح، أنهم إنما سُمّوا بالبطاح لأنهم دخلوا مع قصى البطاح، فأقاموا هناك .فهم مستقرون حضر، وقد أقاموا فى بيوت، مهما كانت فإنها مستقرة، وقد انصرفوا إلى التجارة وخدمة البيت، فصاروا أصحاب مال وغنى، وملكوا الأملاك فى خارج مكة، ولا سيّما الطائف، كما ملكوا الإبل، وقد تركوا رعيها للأعراب .وعرفوا أيضا بقريش الضبّ للزومهم الحرم .وأما قريش الظواهر، فهم الساكنون خارج مكة فى أطرافها، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً، أى إنهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح فى الاستقرار وفى اتخاذ بيوت من مدر .وكانوا يفخرون على قريش، مكة بأنهم أصحاب قتال، وأنهم يقاتلون عنهم وعن البيت .ولكنهم كانوا دون "قريش البطاح "فى التحضر وفى الغنى والسيادة والجاه، لأنهم أعراب فقراء ، لم يكن لهم عمل يعتاشون منه غير الرعى .وكانوا دونهم فى مستوى المعيشة بكثير وفى الوجاهة بين القبائل .ومع اشتراكهم وقريش البطاح فى النسب، ودفاعهم عنهم أيام الشدة والخطر)(٩٤) . ويقول رحمه الله أيضا فى وصف حال مكة :(وقد تمكنت مكة فى نهاية القرن السادس، وبفضل نشاط قريش المذكور من القيام بأعمال هامة، صيّرتها من أهم المراكز المرموقة فى العربية الغربية فى التجارة، وفى إقراض المال للمحتاج إليه .كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة، واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لان تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجى ورأوا ما فى بيوت أغنيائه من ترف وبذخ وخدم وإسراف)(٩٥) ، فمكة قريش ليست بدوية كما يستنتج من جاكلين شابى، وهذا ما يثبت أنها أبعدت كثيرا فى تحليلاتها الأنثربولوجية، وتمثل أدواتها التحليلية فى وصف البيئة المحمدية .

وتبعا لذلك، تستنتج جاكلين شابى أن الفترة التى بعث فيها النبىﷺ والتى تلتها، فترة يسودها المنطق العجائى، وتقوم على الثقافة الشفاهية، شأنها شأن الثقافة البدوية، ولا تلتفت هنا لما روى من

وعمدة جاكلين شابى هنا كما رأينا هو ورود كلمى الصاحب والنذير فى القرآن الكريم الأول ما يدل فى نظرها على ما ذكرت، ولا يسلم لها بحال، هو محض تحكم بلا شك، إذ قد وردت تلك الإطلاقات المشار إليها فى السور المكية والمدنية معا، فى البقرة(آية119) على سبيل المثال، وغيرها كثير، كما أن فكرة النبوة وردت فى السور المكية، ودونك سورة الطارق(آية7) فقد وردت فيها كلمة النبى، كما وردت فى سورة الأحقاف(آية21)، والمطففين(آية11) وغيرها كثير .كما وردت كلمة رسول فى القرآن المكى، فى سورة التكوير(آية19)، والمزمل(آية15)، والحاقة(آية40)، وغيرها كثير، ما يبين أن قولها تحكم لا يمت إلى الاستقراء بشيء .

والعجيب فى تحليل شابى أنها اعتمدت كلمة صاحب الواردة فى سورتى التكوير والنجم للدلالة كمؤشر على أنه لم يوصف بالنبى، مع أنه فى السورتين ورد ما يثبتها، قال تعالى فى التكوير ?: :إنه لقول رسول كريم ?(آية19)ن وقال فى النجم ?:ماضل صاحبكم وماغوى .ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ?(آية3-2)، فاستدلت بالصاحب وتركت الوحى، فكيف غفلت عنها؟؟؟ وما كان ينبغى أن تسلك هذا المسلك فى الإثبات، كان يجب عليها الاستقراء التام للقرآن المكى ومعانيه، ودراسة الألفاظ دراسة دلالية تعالقية، إذ اللفظة تحمل من المعنى فى سياق غير ما تحمله فى سياق آخر، وقد أبدع توشيهيكو إيزوتسو فى تحليل لغة القرآن فى كتابه :الله والإنسان فى القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم(١٠٢) ، فهو مثال يحتذى فى الدقة والأمانة العلمية، وفى تحقيق مثل هاته المسائل الدلالية، وإن كانت له بعض الهنات .

وتذكر جاكلين شابى أن نصوص العهد المكى تبين أن النّبىﷺ لما شرع فى دعوة قومه تلقوه بالرفض والنبذ، واتهموه بمس الجنّ، لما كان يحدث به من اتصال بالسماء(١٠٣) ، ما يعنى فى نظرها وفى نظر كثير من الحداثيين العرب أن قريش عرفت حاله واستطاعت تصنيفه (١٠٤)، ولا نسلّم لهم استنتاجهم؛ ألم تعلم أن قريش قد اتهمت النبىﷺ بأمور كثيرة مشهورة، فقالوا :شاعر، وقالوا به مس، وقالوا ساحر، وقال مجنون، وقالوا ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة، وقالوا أساطير الأولين، فلم تُذكر بعضها وتترك بعض، وذكرها جميعا جنبا لجنب يؤكد أن قريش احتارت فى تصنيف حالة النبىﷺ، ولم تجد لها تأويلا بِكبرِها .

ولم تكن دعوة النبىﷺ فى هذه المرحلة كما تدعى جاكلين شابى إلا إنذارا لقبيلته من شر

المراد به رب القبائل، لا رب العوالم كما هو شائع فى كتب التفسير، ودليلها الوضع فى السياق الثقافى، الذى يظهر أن العالمين بمعنى العوالم لا بمعنى لها للبدو إلا القبائل، ما جعلها تدعى أن العالمين هى القبائل(١١٧) ، وعنونت به كتابها :(رب القبائل، إسلام محمد)، أى رب العالمين، معرضة عما تقرر فى كتب التفسير، ومعرضة عن الطرق النقدية التى تصلح لتحقيق دلالة اللفظ، تفسير بالمأثور، ودلالة وسياقات، فقد وردت لفظة العالمين فى القرآن 73)) مرة، 42)) مرة منها بالإضافة إلى رب، 31)) منها فى سياقات أخرى، لا يستقيم فيها معنى القبائل، من ذلك قوله تعالى ? :سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ?، وسياقات وردت فى إطار حدثيها عن الأنبياء الآخرين .وبعد كل هذا، كيف يصح لجاكلين شابى أن تعرف أن العربى القريشى ضيق الأفق، لا يعرف من العوالم إلا القبائل، ألم يعرف الحبشة والفرس؟ ألم يهاجر إلى الشام والعراق؟ وألم يحضر الإماء من الروم والهند؟ ألم سمع عن عالم الجن؟ وكلها سياقات لا تعلق لها بالقبائل.

وبالطريقة نفسها، طريقة الوضع فى السياقMise en contexte))، فسرت العالمين بالقبائل، وأعادت تفسير الإسلام بدين القبائل، كما أعادت قراء ة الكلمات الأساسية للمعجم الإسلامى، كالله، والنبى، والبيت(الكعبة)، معتمدة على قراء ة فليلوجية تاريخية تخمينية، التى أكد معاصرها توشيهيكو إيزوتسو أنها لا تفيدك إلا الظن فى أغلب أحوالها، ولا تصلح لتحقيق مثل هذه المسائل تحقيقا علميا، ولذلك اقترح أن نستند إلى طريقة علم الدلالة ومناهجه، وبنى عليها كتابه الشهير :الله والإنسان، بين فيه الفرق الكبير بين دلالة هذه الألفاظ فى المعجم القرآنى ودلالتها فى السياق العربى(١١٨) ، وبصر فيها بعقم طريقة من ينتهج مسلك جاكلين شابى، وصحح فيها كثيرا من تحليلات تراثنا الإسلامى، وهو كتاب جدير بالتثمين .

ويظهر من هنا، أن جاكلين شابى تريد أن تنزع القداسة عن كل سيرة النبىﷺ، وتؤنسه مرة أخرى، وتُصوره كمصلح اجتماعى، حاول أن يحقق الأسطورة، دعا قبيلته إلى دين آبائها أولا، ثم دعا القبائل العربية الأخرى إلى التوحد على دين آبائه، ليصير الله ربه رب العالمين "seigneur des tribus"(القبائل كما فسّرتها الباحثة)، وعلى ذلك تحمل العديد من الشرائع الإسلامية، كالحج مثلا الذى جمع بين الحجّين الذين سادا فى بيئة العرب، جمعا بينهما ليُلملم شمل القبائل العربية، ما يبين أنه مشروع سياسى أكثر مما هو مشروع دينى .(١١٩)

المكى، وهو المراد بالهيمنة .فلو تولاهم لاسترضاهم، والحال غير هذا، مما يدل على بطلان مقدم الفرضية.

كما أبعدت جاكلين شابى فى دعواها تولى النبىﷺ إبراهيم فى المدينة عقب رفض اليهود الدخول فى دينه، رغم توفر العديد من الحجج القوية على فساد ذلك، ألم تعلم أن قصة إبراهيم قد وردت فى القرآن المكى كنموذج للاحتذاء ، وسورة الأنعام(آية108، 161)، وسورة يوسف(آية38)، وسورة إبراهيم لخير مثال على حضورها، وما ورد فى سورة البقرة من تول له يسير على النسق نفسه، فلا تحوّر فى الخطاب، بل توضيح ومزيد بيان، وهذا ما يبين عدم مراعاة جاكلين شابى لتاريخ النزول القرآنى، ولا لقواعد تحليله.

خاتمة البحث :

إلى أى حد يمكن أن نقول إن جاكلين شابى قد وفقت فى بحثها؟ لقد كتبن جاكلين شابى كتابها بلغة راقية، وطريقة فى التحرير مدهشة، اتسمت بالخصائص التالية:

١) تكمن أهمية جاكلين شابى فى محاولة تقديمها دراسة أكاديمية جديدة، تقرأ السيرة النبوية الشريفة قراء ة أنثربولوجية، سابقة بذلك جامعاتنا الإسلامية ونقادنا إلى تناول هذا الموضوع الشائك بهذا المنهج الذى صار يحتفى به كثيرا فى الدراسات الاستشراقية الغربية على حساب التحليل اللسانى والدلالى والموضوعى والمقارن للنص القرآنى .

٢) تبين لنا أن جاكلين شابى قد وظفت العديد من العلوم الإنسانية، من آثار وتاريخ وعلم نفس واجتماع وأنثربولوجيا، تسلحت بكثير من مناهجها ومفاهيمها النقدية التى أشرنا إلى بعضها فى غضون هذا البحث، وهى ميزة لها .وبالمقابل فقد أهملت العلوم الإسلامية الأصيلة من غير تبرير يستحق الذكر، فلا تكاد نجد توظيفا لعلوم القرآن ولا لعلوم الحديث بين التأريخ للنصوص و الفرز الروايات الحديثية والتاريخية، كما يظهر فى تحليلها لتوثيق النص القرآن، وماكان ينبغى لها أن تعزف عنها، سيما فى مثل هذه الموضوعات، فهى علوم أثبتت معقوليتها وأصالتها النقدية.

٣) وظفت جاكلين شابى التحليل الفليلوجى فى دراسة سيرة النبىﷺ، وجعلته أساسا للعديد من استنتاجاتها النقدية، كتحليلاتها العجيبة لكل من :رب العالمين، والإسلام، والله، واعتمدت على ما سمته الوضع فى السياقMise en contexte))، ولا يعدو عن أن تكون قراء ة ظنية تخمينية، لا تقوم

ولسانيات الخطاب النبوى الشريف، فقد صارت هذه علوما إسلامية ضرورية، أحببنا أم كرهنا، يمكن أن ننهض بها لفهم ديننا والدفاع عنه، فإما أن نملأ الفراغ على بصيرة، وإن يملأه غيره على جهل من ديننا، فأين المتخصصون فيها؟ وأين مراكزها فى الجامعات الإسلامية؟ ولله الحمد من قبل ومن بعد.

الهوامش

(1) Rubin, Coll. The Formation of the Classical Islamic World, vol. 3 et 4, Variorum, Ashgate, 1998, v. infra, p. 33).

(2) Jacqueline Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet,) Paris: Nosis,1997)

(٣) اتصلت بها مرارا للاستفسار فرفضت الرد، وعرضت عليها ترجمة كتابها سيد القبائل إلى اللغة العربية، فلم ترد أيضا.

(4) Jacqueline Chabbi, Le Coran dcrypte : Figures Bibliques en Arabie (France : ,Fayard, 2008)

(5) une vision sociologiquement et historiquement plus vraisemblable, Ibid, Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p389,

(6) Quon le sache, il nest nul retour en arrire, sinon dans le mythe . Ibid, p405

(7) Ibid, p22

(8) "Un livre exemplaire d'une saine mthode d'histoire des religions, nl irrvrencieuse ni dogmatique. Une grande prudence lui fait viter les essais subjectifs visant entrer dans lme du Prophte L'islam".Ibid.

(15) Ibid.

(16) Jacqueline Chabbi, Une approche Historico-critique, de lIslam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_histor ico-critique_ de_lislam_des_origines.asp((20/01/2010)

(17) Ibid

(18) Ibid

(19) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p29-32

(20) Ibid, p22

(٢١) كما تروى العديد من كتب التقليد الإسلامي، راجع مثلا :جلال الدين السيوطي، الإتقان 1/164.

(22) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p81-175.

(23) "Ce n'est qu'avec l'empire des Omeyyades (661-750(que la religion de Mahomet a bascul dans un autre monde dans lequel l'criture est devenue prdominante. Le Coran a alors t mis par crit, certainement partir de fragments d'oralit conservs dans les mmoires. Dans les sicles suivants, la tradition islamique a couvert d'un luxe de dtails les origines de l'islam et reconstitu un pass ... fictif!", Ibid;p85

(24) Ibid,p 90-175

(25) Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de lIslam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp((20/01/2010)

(26) Ibid

(27) Le gros problme de l'historien est alors de ne pas laisser l'histoire sainte occuper le champ de la problmatique historique. Il n'est pas toujours simple de rsister la pression ambiante et de ne pas traverser le miroir. Il faut alors se garder de trop de fascination pour

son contexte social rel, et non dans un contexte ou le fait religieux est surestim.", Ibid,and Chabbi, Le Seigneur des tribus. Lislam de Mahome, p 19-20

(38) Chabbi, Le Seigneur des tribus. Lislam de Mahome), p 19-20

(39) Ibid, p 22

(40) Ibid.

(41) Ibid.

(42) (Dans cet ouvrage, Jacqueline Chabbi veut faire uvre dhistorienne, sans ngliger les enrichissements quapporte la dmarche anthropologique, Christian Robin, Chabbi Jacqueline :: le seigneur des tribus, in BCAI 18(2002), 15

(43) (Un historien n'a pas de leon donner un thologien, mme s'il doit l'vidence tudier son mode de pense et sa doctrine. Bien entendu, il n'a pas non plus recevoir de leon de lui, en vertu d'un quelconque principe d'autorit qui interdirait de poser certaines questions), Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de llslam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique _de_lislam_des_origines.asp((20/01/2010)

(44) Ibid.

(45) Chabbi, Le Seigneur des tribus. Lislam de Mahomet, p1-22.

(46) Ibid, p. 29-79.

(47) Ibid, p. 81-175.

(48) Ibid, p. 177-273

(49) Ibid, p. 275-387

(50) Ibid, p. 389-411

(51) Ibid, fp. 29-79.

(70) Ibid

(71) Lnigme demeure donc, jusqu nouvel ordre, des conditions prcises de la mise par crit du Coran mme si les raisons qui firent aboutir le processus ont une chance de sexpliquer dans le contexte imprial ommeyade face Byzance , Chabbi, Le Coran dcrypte : Figures Bibliques en Arabie, p 35.

(72) Pourtant, si le texte du Coran parat assez vite stabilis, probablement la fin du 1er sicle musulman (VIIe s. apr. J.-C.(soit environ trois quarts de sicle aprs la mort prsume de Mahomet et, certainement plus tard, en tous cas, que laffirme la tradition musulmane f, p33

(73) Encyclopdie de l'Islam , 2me dition 1985 (5/405).

(٧٤) جلال الدين السيوطى، الإتقان .1/164

(٧٥) طبقات ابن سعد .3/212

(٧٦) صحيح البخارى، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، حديث رقم .4986

(٧٧) د .لبيب السعيد :الجمع الصوتى الأول للقرآن، طبعة دار المعارف بالقاهرة 1978ص .323

(78) Encyclopdie de l'Islam, art ((Quran)).T 5 p: 410.

(79) Chabbi, Le Coran dcrypte : Figures Bibliques en Arabie, p 35.

(80) Chabbi, Le Seigneur des tribus. Lislam de Mahomet, p. 19-20

(81) Ibid.

(82) Chabbi, Le Coran dcrypte : Figures Bibliques en Arabie, p 31-32

(83) Chabbi, Le Seigneur des tribus. Lislam de Mahomet, p 134

(84) Ibid, p 133

(85) Ibid, p 135

(86) Ibid, p 137

(87) Ibid, p 162

(88) Ibid, p 163

محمد الجهاء (بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية، 2007)

(103) Chabbi, Le Coran dcrypte : Figures Bibliques en Arabie, p156.

(١٠٤) على سبيل المثال عبد الله إبراهيم، التلقي والسياقات الثقافية، (لبنان-الجزائر :منشورات الاختلاف، 2003)

(105) Le discours qui est tenu par Mahomet se dfinit demble comme tant d"avertissement" (indhr). Il sagit de prvenir la tribu dun danger imminent , Chabbi, Le Coran dcrypte : Figures Bibliques en Arabie, p35

(106) "Il est probable que cet homme, qui prchait pour un dieu unique tel qu'il existait dj chez les juifs et les chrtiens, souhaitait rtablir des valeurs de solidarit dans sa tribu, dont certains membres s'taient trop enrichis, Ibid

(107) Ibid, p156.

(108) Ainsi, la dmarche initiale de Mahomet sest-elle oppose sur ce plan, de faon frontale, aux rflexes culturels des hommes de son monde. Contre son innovation inoue, le texte coranique rappelle comme en cho la doctrine des hommes de la tribu : ")Cest(la voie suivie par nos pres)et nulle autre quil faut suivre(Coran Ibid, p316.

(109) Ibid

(110) Ibid.

(111) Ibid.

(112) Ibid

(113) Ibid, p44; 222

114) Ibid

(115) Christian Robin, Filles de Dieu de Saba La Mecque:rflexions sur lagencement des panthons dans, lArabie ancienne, Semitica, 50,